سؤال
ليس العلم،
إنها الْعِلْمَوِيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمْهِيدٌ

بدايـةً، لا يسـتطيع عاقـلٌ أنْ يُنكِـر فضـلَ العِلْـمِ التّجْرِيـبِيّ علـى الإنسـانيَّة، فلا شَـكَّ أنّ الاكتشـافاتِ العِلميةَ الحديثةَ طـوّرَتْ حياةَ الإنسانِ، ويسّرَت له سُبُلَ العيْشِ والرَّاحَة.

لكـن مـا نَـرَاهُ مُؤَخَّـرًا مـنْ مُغَـالاةٍ فـي تقديـسِ العِلْـمِ الطبيعـيّ، والادّعاء بأنّه يمكنُ الاسـتغناءُ به عن غيره، حتى وصلَ الأمرُ بفريقٍ -من أصحاب الفكر المادّي- إلى أنْ يَرَوْا فيه الكفايةَ والاستغناءَ عن وجود إله لهذا الكوْنِ.

لذَا أرَدْنا أنْ نُفَرّق بيْنَ هذيْنِ الاتجاهيْنِ؛ لتنحلّ المشكلةُ التي يحاول البعـضُ تصويرَها على أنّ هناك صراعًا بـين العلْم والدّين؛ في حين أنّ الدّين يحثُّ على طلَبِ العلم، وإعْمال العقل، والسّـير في الكون لمعرفته وفهْمه، ومن ثَمَّ التّعامُل معه على الوجْه الأفْضَلِ.

إن مشـكلتَنا - في الحقيقةِ- مـع هـذه النَّزْعـةِ الْعِلْمَوِيّة التي تصِل في بعض الأحيان إلـى درجـة تقديـس العلـم الطبيعـي وتَأْليهِـه؛ بَيْدَ أنّه لا يمكـن بناءُ تجربـة مَعْمَليّة لإثبـاتِ أنّ العلْـمَ الطبيعـي وحـدَه يُزوِّدُنَـا بالمعرفـة؛ فالْعِلْمَوِيّـة بذلـك تحـارب الأساس الوحيد الذي قامت عليه وهو التجريب.

فرق بين العلْم والْعِلْمَوِيّة:

إذا كان الذي يفصل بين العلم (Science) والْعِلْمَوِيّة (Scientism) عدة حروف فقط، فلابدّ أنْ نعلمَ أنّ هذه الإضافة الصغيرة هي السبب في معظم مشاكلنا الحالية، فيما يتعلَّق بتصوُّر العالم والرّوح الإنسانية.

فالعلم من أهمِّ الفَعَالِيَّاتِ الإنْسَانيّة؛ منه ما يكون مصدره الوحي، وهو العلم الديني. ومنه ما يكون مصدره العقل والحس، وهو العلم التجريبي، الذي تطوَّر كثيرًا في الحضَارة الغربيّة الحديثَة.

وفي محاولة لتأطير هذا النشاط الإنساني قام العالِم جون مور (John Moorr) بوضْع ثمانيةِ معايير؛ كمُسوّغات للاعتراف بأيّ نشاطٍ فكري على أنّه علْم.

ولم تكُنْ هذه هي المحاولة الوحيدة لتأطير النشاط العلمي، ومحاولة وضْع أُسُسٍ معياريّة له، بلْ تَلَتْهَا محاولاتٌ عدّة، من أهمها ما قام به العالم الأمريكي توماس كون (T.Kuhn)، بتقديمه (النموذج الإرشادي Paradigm)، أو(الإطار الفكري)، وهو عبارة عن النظريات المعتمدة كنموذج لدى مجتمع من الباحثين العلْميين في عصرٍ بذاته، علاوة على طرق البحث المميزة لتحديد وحل المشكلات العلمية وأساليب فهم الوقائع التجريبية. ويركز (كُون) على الطبيعة الجمعية للنشاط العلمي مؤكدًا أن العالم الفرد لا يمكن اعتباره ذاتًا كافية للنشاط العلمي. وانتهى (كون) إلى نتائج بعيدة المدى ذات طبيعة ابستمولوجية (معرفية) ومنهجية.

أيضًا عندما لاحظ كارل بوبر شيوع المتناقضات بين العلماء، اقترح عليهم -في عام 1981م- مجموعة من آداب المهنة: كحظر الوصاية على التفكير العلمي، حتى وإن صدرت من مختصّ. وكالاعتراف باحتمال وقوع العلماء في الخطأ، بشرط تحليل الأخطاء والتعلم منها، بدلًا من التستُّر عليْها. وأيضًا احترام المُشْتَغِل بالعلْم؛ لحرية الآخرين في النقد، والاعتراف بحقهم في تنْبيهه الى أخطائه، فذلك أدْعَى إلى تصحيحها بدلًا من الاكتفاء بالنقد الذاتي.

هذه المحاولات وغيرها تحمل بين طيَّاتِها إشاراتٍ إلَى أنّ هناك -بالفعل- مشكلاتٍ منهجِيّةً داخلَ الأوْسَاط العلْميّة -خاصة في مجال العلوم التجريبية- قد حاول هؤلاء العلماءُ وغيرهم مواجهتها والتصدّي لها، وأيًّا ما كان مصير هذه المحاولات بعد ذلك، فالأمر الذي يشغلنا هو مدى التزام العلماء بالمعايير والأسس المنهجية للبحث العلمي.

تعريف الْعِلْمَوِيّة:

الْعِلْمَوِيّـة (Scientism): هـي المذهـب القائـل بوجـوب اتّباع مناهج العلوم الطبيعية في جميع حقول المعرفة، لأنـه المنهج الوحيد الموثُـوق به للوصول إلى الحقائق، وأنـه لا حقيقة سـوى ما تُوَصِّـلُ إليْه تلـك المناهجُ؛ أيْ: تعميـمُ العلْـم التجريبـي علـى كل شـيءٍ، بحيـث يشـمل الوجودَ كلَّه، ويكون في نفس الوقت هو العنصر الوحيد في فهْم ماهيّة الوجود.

هـذه النزعـة الْعِلْمَويّـة تحصـر العقـل الانسـاني فـي نطـاق ضيـق مِـن المعرفـة، إذ إنهـا تُضيـفُ إلَـى العلم لازمَتيْن، تعتبرُهما نتيجتيْن طبيعِـيّتَيْن له:

الأولى: أن العلم التجريبي والحس هما المصدر الوحيد للمعرفة الإنسانية.

والثانية: أن موضـوع العلـم -الكائنـات الماديـة- هـي الكائنـات الأساسية في عالم الوجود، وعليه فإن الموجودات تنحصر في الأشياء المادية التي يمكن للعلم التعامل معها.

> ”هاتان النتيجتان بمجرد لفت الأنظار إليهما، لن يكون من الصعب على أي أحد أن يلاحظ بوضوح أنهما نتيجتان اعتباطيتان؛ غير مدعومتين بالحقائق العلمية.“

لقد بلغ الأمر ذروته في القرن التاسع عشر عندما حقق العلم التجريبي انتصارات كبيرة، فتحوّلَ بذلك إلى إلـه يُعبَد، وصار منهجه عقيدةً لا يَرضَوْن عنها بديلًا. وأخذوا في بناء أصولٍ فكرية جديدة، تتعلّق بتصوُّر الكوْن والحياةِ والنفْس الإنسانية، مع تقرير دعْوى التعارُض بين العلم والدين، وأن العلم لن يتقدّم، ولن يتطوّر، إلا بابتعاده عن الدّين وضوابطه، وصارت هذه أهم دعْوى يحرص الماديّون على إبرازها؛ فعن طريقها يصوّرون مذهبَهم وكأنّه نتيجةً وثمرةً للعلْم، وهم -وحدهم- مَنْ يملكون زمامَ العلْم، ومِنْ ثَمّ يَجِدُونَ لأنفسِهم التّبريرَ فِي توظِيفه لخِدْمة مَا يُؤمنون به فقط.

من أهم الأصول التي يعتمدون عليها:

1- الاستغناء بالتفسير العلمي التجريبي للحياة وأسرار الكون.

2- الاستغناء بالمنهج العلمي التجريبي عن غيره في طريق اكتساب المعرفة.

3- الاقتصار على تفضيل المنهج العلمي التجريبي، وإهمال بقيّة المناهج، خاصة المنهج العقلي.

وبمناقشة هذه الأصول يتضح تناقضها وبطلانها:

"فدعواهم بأن العلم فسّر للإنسان الكثير من حقائق الكون، وكشف له عن العديد من أسراره وأزال الغموض عنها، وأن لديه القدرة على كشف ما بقي خافيًا من ظواهر الكون وغامضًا من أسراره. فلم يَعُد الإنسان في العصر الحديث في حاجة إلى مصدر آخر يفسر له الكون ويشرح له طريقة سَيْرِه ونظامه."

إذا نظرنا إلى هذا الأصل سـنجده مبنيًّا على أسـاسٍ خاطئ، وقاعدةٍ غير مسـتقيمة؛ ذلك لأن دعواهم بأن العلم كافٍ للإنسان في تفسير كل الحقائـق، وتقديم الحلّ لكل المشـاكل الحياتية، دعْوى تحتاجُ إلى دليل، وعند إقامتهم لهذ الدليل: إما أنْ يعتمدوا على العلم نفسـه، وهم بذلك يسـتدلون على صحة الشَـيْء بالشَيْء نفسه، وهذا خطأ منهجي. وإما أن يستدلوا على صحة دعواهم بغير العلم، وهم بذلك قد خالفوا مقولتهم: "لا يوجد طريق للمعرفة إلا العلم نفسه".

ثـم إن حقيقـة دعواهـم وهي كوْن العلـم كافيًا عن كل شَـيْء، هي قضيّة كليّة، ومثل هذا النوع من القضايا لا يمكن التحقُّق من صدْقِها بالتجريـب والاختبـار؛ لأن القضايـا العامـة المُطْلَقـة ليسـت قضايـا تجريبيـة؛ فكيـف يحكُمـون بصحّتهـا إذنْ وقـد أبطلـوا كل المناهج إلا المنهج التجريبي، وأبطلوا كل وسيلة للمعرفة إلا الحس.

"أمـا دعواهـم بتفضيـل المنهج التجريبي على غيره، فهي مردودة لأن الانتقال من الجزم إلى التفضيل لا يعنـي تخليهـم عـن النظـرة الشمولية للمنهج التجريبي، كما أن الأفضليـة في تقديـم المناهج أمر"

توغل الْعِلْمَوِيّة في العلوم الإنسانية وما ترتب على ذلك من مشاكل معرفية ومنهجية:

لقد حكمت الرؤية المادية عقول الكثيرين من مفكري القرن الثامن عشر والتاسع عشر، الذين تصوروا أن المعرفة العلمية المستمدة من الحس والتجربة قد توصلت إلى حل معظم مشاكل ومسائل العالم، ولم يتبَقّ إلا القليل من الألغازوالمستغلقات التي سيكون تطور العلوم الطبيعية كفيلًا بحلها.

هذه الرؤية التى تجسدت في فلسفات حديثة ومعاصرة: كالماركسية، والوضعية المنطقية، والوجودية، ساهمت في تضليل قطاعات كبيرة من البشر.

لقد حرص رموز الفكر الغربي المعاصر على إدخال الروح العلمية المادية إلى العالَم الإسلامي وتطبيقها على الدين والتراث والمجتمع، ثم بدأت مشروعاتهم الفكرية تتوالى في دراسة التراث الإسلامي مدّعين استخدامهم منهجيات علمية متطورة يفضلونها على المناهج الإسلامية المعهودة، واختلطت بهذه الروح مشكلات خطيرة، مثل: إهمال الوحْي مصدرًا للمعرفة، واعتمادًا على الحس معيارًا أساسيًّا للمعرفة.

لقد انحرف مسار الفكر العلمي مع تلك التيارات، وأصبحت الفكرة السائدة أن العلم الطبيعي يُمثِّلُ التطوّر الحقيقي للبشرية بخلاف الدين والميتافيزيقا (الغيْبيات)، ومن هنا أُبرزت ضرورة القطيعة التامة والجذرية بين الدين والعلم؛ بل إنهم حاولوا إبطال الدين والغيب، وإنكار وجود الخالق سبحانه؛ فالعلم لم يَعُدْ يُوصَف بالمادية؛ بل أصبح يوصَف بالإلحادية، فهناك علْمٌ إلْحَادِيّ، أو إلْحَادٌ علْمِيّ.

بالإضافة إلى أن بعض العلمويين قد نحا منحىً متطرفًا للغاية، لدرجة أنهم لم يكتفوا فقط بإنكار كل وجودٍ مَاوَرَائِيّ، بل ذهبوا إلى أنّ دلالة كل مفهوم مرهونة بكوْنه قابلًا لأن يتحقق في إطار الحس والتجربة؛ أي أنهم ينكرون كل أمرٍ غيْبي بأيّ نمطٍ كان، ويقومون بتحليل كل قضية وتفكيكها إلى عناصرها الأولية بغية فهمها وإدراكها؛ وفي غير هذه الحالة يعدونها كاذبة ويُعْرِضُون عنْها لكوْنها مُهْمَلة بزعْمِهم. وعلَى هذا الأساس اعتبروا المفاهيمَ الدالّة على العالم المُجرّدِ مِنْ هَذَا القَبِيل. ونسي هؤلاء أو تَنَاسَوْا أنّ ثَمّة أشياء حقيقيّة -وفي نفس الوقت- ليست في متناوَل العلم، منْ أهمّها: الْقِيَم بمعناها الحقيقي والنهائي، والمعاني الوجودية والكلية، والعلل الغائية.

الأثر السلبي للعِلموية في مجال الأخلاق والبيئة:

إن مشكلة الْعِلْمَوِيّة لم تقف فقط عند حدّ تَأْلِيهِ العلم الطبيعي، ووضع سقوف للمعرفة الإنسانية، بل إن المشكلة الأكبر تكمن في فصْل القِيَم والأخلاق عن معرفتنا بالعالم؛ وفي عالم مُتجرّد عن القيمة تصبح كل الأمور متساوية، ومن ثَمّ تصبح كل الأمور نسبية، وحين يحدث ذلك فإنه يصعب الحكم على أي شَيْء، ويصبح من المستحيل التمييز بين الخير والشر، بين الجوهري والنسبي، وأخيرًا بين الإنسان والطبيعة أو بين الإنسان والمادة، هذا هو البُعد المهم في الحداثة وما بعدها.

هذا البعد النسـبي للأخلاق كان له مردوده السـلبي على الإنسـان وعلـى البيئة التي يعيـش فيها، فبالنظر للواقع العالمي نَجِدُ بعضَ الآثار المدمّرة للعلم: كانتشـار الأسـلحة الفتّاكة، والأمراض الجديدة المُسـتعصيَة؛ بسـبب التلـوث البيئي، نتيجـةً للإفراط في اسـتعمال الكيمياويات.

هـذه النظـرة التـي لا تفـرق بـين الخـير والشـر ظهـرت فـي تعامُل الإنسـان مـع الطبيعـة مِنْ حوْلـه، طريقته فـي التعامل هـذه تمثل انعكاسًا لأخلاقه، فالعدالة البيئية مثلًا تنتقد المخاطرات البيئية؛ لأن مَـنْ يتعـرّضُ لها –بالأكثر- هـم الفقـراء والأقليات السـكانية، وهذه دعاوى أخلاقية في جوهرها، فإذا فَقَدَت الأخلاقُ قيمتَها كان لهذا الفقـدان عظيـمُ الأثر علـى البيئـة والمجتمع، خاصة في ظل فشـل المعالجات القانونية والحقوقية لتلك المخاطر.

”وأخيرًا نقول:

إن أصحاب النزْعة الْعِلْمَوِيّة يرَوْنَ أنّ العلم هو الأداة الموثوقة الوحيـدة التـى نمتلكهـا لفهـم العالم وهـو لا حدود لـه، قد لا نعرف أمرًا ما الآن، لكن سـنعرفه في المسـتقبل، هي مسـألة وقـت فقـط، وجهـة النظـر هـذه موجـودة فـي سـائر كتابات العلمويـين وعلـى رأسـهم (ريتشـارد دوكينـز) -عالـم الأحيـاء التطوري الشـهير- الذي يؤكّد علـى أنّ العلم دحض فكرة وجود الله، ويحـرص علـى ربـط الإلحاد بالعلـم وتوظيف الأخـير لخدمة الأول. إن العلمويـين يحتكرون حق معرفة الحقيقة، ويسـلبون مخالفيهم من أصحاب وجهة النظر الدينية هذا الحق.“

الآن وبوصول العلم إلى مرحلة ما بعد الحداثة نجد أنه قد انقلب على كثير من دعاوى الغُلُوّ السابقة، تلك التي روّجت لها تيارات الوضعية والْعِلْمَوِيّة والمادية، وجاء الرد من واقع المجتمعات المعاصرة -التي عرفت التقدم في العلوم العصرية- كيف تساوى خيرُها مع شرّها، ونفعها مع ضرّها، وأصبحت مشكلات العلم ومنهجه تُخِيفُ العُقَلاء، وتُحْبِطُ دعَاوى الاكتفاء بالعلم.

وإليكم بعض النصوص لكبار التجريبيين في إبطال دعوى العلمويين:

يرى (**أينشتاين**) أن العقل البشري مهما بلغ من عظمة التدريب وسُمُوّ التفكير عاجز عن الإحاطة بالكوْن، فنحن أشبه بطفل دخل مكتبة كبيرة، ارتفعت كتبُها حتى السقف، فغطت جدرانها، وهي مكتوبة بلغات كثيرة، فالطفل يعلم أنه لا بد أن يكون هناك شخص قد كتب تلك الكتب، لكنه لا يعرف مَنْ كتبَها، ولا كيف كانت كتابته لها، وهو لا يفهم اللغات التي كُتِبَتْ بِها.

وفي هذا المعنى يقول عالم الفيزياء النمساوي، الحاصل على جائزة نوبل (**إرفين شرودنجر Erwin Schrodinger**): "إن الصورة التي يقدمها العلم الطبيعي عن الواقع من حولي صورة ناقصة جدًّا .. إنه لا يتكلم عن الأحمر والأزرق، المُرّ والحُلْو، الألَم واللذّة، إنه لا يعرف شيئًا عن الجميل والقبيح، الحسن والسيئ، الله والخلود، يتظاهر العلم أحيانًا بأنه يجيب عن أسئلة في هذه المجالات، لكن غالبًا ما تكون إجاباته سخيفة للغاية".

وفـي تأكيد نفس المعنى يقـول الفيزيائي الأمريكي المعاصر (لي سـمولين) فـي (حيـاة الكـون The Life of Cosmos): "لكننـا نبقـى عاجزيـن عـن الإجابة عن سـؤال بسـيط تَـمّ طرْحُـه مُنذُ أمَـدٍ بعيدٍ في ثلاثينيـات القرن العشـرين وهو: لمـاذا يكون للبروتـون والنيوترون نفس الكتلة تقريبا؟ ولماذا كتلة النيوترون هي الأثقل قليلًا؟".

> **"والخلاصة أنــه إذا كان العلم الطبيعي قاصرًا عن تقديم أجوبة في إشـكالات كبيــرة داخل حقله التجريبــي المادي، فإنه -مــن باب أوْلى- عاجــزٌ عن تقديم الأجوبة في المجالات الأخرى."**

من أهم المراجع:

- بنية الثورات العلمية: توماس كون.
- البيئة والمجتمع، مقدمة نقدية: بول روبنس، وجون هينتز، ترجمة: خالد مفتاح.
- تاريخ الفلسفة الحديثة: يوسف كرم.
- تاريخ المادية للانجه: زكريا فؤاد.
- دراسات معرفية في الحداثة الغربية: عبدالوهاب المسيري.
- الدين والعقل الحديث: ولتر ستيس.
- سؤال الأخلاق: طه عبدالرحمن.
- العلم يدعو للإيمان: كريسي موريسون، ترجمة: محمود صالح الفلكي.
- لماذا الدين ضرورة حتمية؟: هوستن سميث.
- النزعة الْعِلْمَوِيّة: سلطان العميري.
- النظريات العلمية الحديثة: حسن الأسمري.
- هذا هو علم البيولوجيا: ارنست ماير.
- وهـم دوكينـز، الأصوليـة الملحـدة وإنـكار الإلـه: ماكغراث،إليسـتر ادغـار وجوانـا كوليكات ماكغراث، ترجمة: محمد عودة.

مؤسسة طابة
Tabah Foundation
www.tabahfoundation.org
دار الفقيه للنشر والتوزيع
DAR AL FAQIH
مبادرة تزكية وعمارة هي إحدى مبادرات مؤسسة طابة للأبحاث والاستشارات